كو٢: ١٦-٢٣

أسيرٌ «حرّ» يُحرّر الأحرار «الأسرى»

الأب ميلاد الجاويش المخلّصيّ

الإطار العامّ

بولس، القابع في ظلمة سجنه، يكتب في الحرّيّة المسيحيّة أجمل السطور. فالسلاسل تكبّل يديه وليس روحه. إنّها حقًّا لمفارقة غريبة: أسير الربّ، الذي يُحسَبُ في الظاهر أسيرًا، هو في الواقع يحرّر، من سجنه، أهل كولوسّي الأحرار "الأسرى"؛ يُحسَبُ مهزومًا ومخذولاً وحزينًا، لكنّه نراه ينشد أروع نشيد في انتصار المسيح، ذاك الذي "خلع أصحاب الرئاسة والسلطان وشهّرهم وسار بهم في ركبه ظافرًا" (كو ٢: ١٥). انتصار المسيح هو انتصارٌ لبولس نفسه. كتب يومًا لأهل كورنثس أنّه يشعر وكأنّه يسير في موكب المسيح الظافر (٢كو ٢: ١٤).

لم ينتصر المسيح إلاّ لأنّه الرأس والرئيس: "إنّه رأس كلّ صاحب رئاسة وسلطان" (كو ٢: ١٠). إنّ كلمة "كيفالي" اليونانيّة (κεφαλη)، وهي من المفردات المفاتيح في كو، تحمل في طيّاتها معنى الأوّليّة (رأس، أوّل، باكورة،...)، وأيضًا معنى التفوّق (رئيس، قائد،...). لذا للمسيح في كو أوّليّة أزليّة، وألوهيّة خلاّقة، وسلطان مطلق، وكمال تامّ[1]. لماذا يستحضر بولس سمات المسيح هذه بالذّات؟ لا نعجب لو رأيناه يستحضر، هو السجين الضعيف، إلهه بكامل مظاهر قوّته وانتصاره. فبه يقوى على كلّ شيء (في ٤: ١٣)، لأنّ قوّة الله تكمل في ضعفه (٢كو ١٢: ٩). في هذا الجوّ العابق بالنصر يتوجّه بولس الأسير "الحرّ" إلى أهل كولوسّي "المأسورين" (٢: ٨) بتعاليم غريبة وعادات قديمة نافلة.

بنية النصّ

انطلاقًا من المبدأ القائل إنّ أبرع مفسّرٍ لبولس هو بولس نفسه، نرى أنّ الآيات ٢: ١٦-٢٣ تشرح نفسها بنفسها بفضل بنيتها المتوازية. نستطيع تقسيم هذا النصّ إلى قسمين متوازيَيْن تفصل بينهما جملة مركزيّة:

أ: [١٦] دعوة ألاّ يحكم أحد على أهل كولوسّي في المأكل والمشرب والأعياد والأهلّة والسبوت؛
ب: [١٧] هذه الشرائع هي ظلّ الأمور المستقبلة، أمّا الجسد فهو للمسيح؛
ج: [١٨-١٩] تخشّع مزيّف وتعبُّد للملائكة ليس إلاّ لشحن الذهن الجسديّ بالأوهام والكبرياء.
د: [٢٠] موت أهل كولوسّي مع المسيح عن أركان العالم؛
أ١: [٢٠ب-٢١] فما بالهم يخضعون لنواهي مثل: "لا تأخذ، لا تذق، لا تمسّ".
ب٢: [٢٢] هذه النواهي هي زائلة لأنّها وصايا ومذاهب حسب البشر،
ج٣: [٢٣] لها ظاهر الحكمة لما فيها من تخشّع وعبادة، لا تهدف إلاّ لإرضاء الهوى الجسديّ.

١- راجع كو ١: ١٥-٢٠؛ ٢: ٩-١٠، ١٤-١٥.

شرح النصّ

أ/أ[1] (آ ١٦//٢٠ب-٢١)

بسلطته الرسوليّة وبثقة المنتصر يبدأ بولس كلامه، ويأمر الكولوسيّين ألاّ يدعوا أحدًا يحكم عليهم في أمورهم اليوميّة. مَن هو هذا "الأحد (τις) المجهول الهويّة؟ لا نعرف بالضبط. هو نفسه "الأحد" الذي يخدع الكولوسّيّين بكلام مموّه ومعسول (٤:٢)، و"الأحد" الذي يأسرهم بالفلسفة وبتعليم بشريّ مخادع (٨:٢). هو من دون شكّ من أهل البلد، لا بل أحد "الإخوة المؤمنين" (٢:١)، لكن "الكذبة" الذين كثيرًا ما صادف بولس من أمثالهم في غلاطية وكورنثس وفيلبّي. كان يصعب على هؤلاء المسيحيّين المتهوّدين أن ينزعوا عنهم رداء موسى، خصوصًا في ما يتعلّق بشرائع كانت عزيزة على قلب كلّ يهوديّ: شرائع تميّز ما هو طاهر عمّا هو نجس، أخرى تشدّد على احترام راحة السبت وعلى قدسيّة أيّام الأعياد. إنّ نواهي مثل "لا تذق، لا تمسّ، لا تأخذ،..." هي وليدة مثل تلك الشرائع. إنّها نواهي تطال الحياة اليوميّة للمؤمن أكثر ممّا تطال إيمانه كتفكير وعقيدة.

لقد عانت الكنيسة الأولى كثيرًا من مثل تلك المسائل، لأنّها كانت تمسّ هويّتها بالذّات: هل عليها أن تبقى وفيّة لموسى وشريعته أم يجب عليها أن تتخطّاهما؟ واجه بولس، بالأخصّ، هذه المعضلة وكتب فيها الكثير في معظم رسائله. نجد، مثلاً، في الرسالة إلى الرومانيّين نصًّا يشبه نصّنا، يتعلّق أيضًا بمسألة المأكل ومراعاة الأيّام (روم ١٤). ليس هذا فقط، بل نجد أيضًا الفعل نفسه "يحكم" (κρινω)[2]. يرفض بولس رفضًا قاطعًا أن تجرّ مسألة أكل وشرب إلى أن يدين الأخ أخاه. سواء في روما أم في كولوسّي، النتيجة هي واحدة: انحراف خطير لإنجيل المسيح، وتقييد للحرّيّة المسيحيّة. لا أحد كان أبرع من بولس، الفرّيسيّ السابق، في محاربة هذا التيّار المتهوّد. لقد اختبر بنفسه قديمًا عبوديّة الشريعة وتذوّق تحرّر المسيح، فلا يمكن أن يقبل بالتالي أن يعود المسيحيّ إلى قيود الشريعة. كان مبدأه الأساسيّ كالتالي: أعمال الشريعة، بحدّ ذاتها، لا تبرّر الإنسان لأنّها ليست إلاّ "ظلّ الأمور المستقبلة" (آ ١٧). مقياس شرعيّتها، كما يحدّده بولس في الرسالة إلى الرومانيّين، هو في مدى مساعدتها الإنسان على التقرّب من المسيح والاتّحاد به: الأكل هو للربّ، والشرب هو للربّ، ومراعاة الأيّام هي للربّ، حتّى الحياة والموت هما للربّ (روم ١٤:٦-٨). متى أصبحت هذه الشرائع طريقًا للحكم على الآخر، وبابًا للتملّق وللتخشّع الخادع، وشرطًا أساسيًّا للخلاص، فلا بدّ عندها من مواجهتها ورفضها.

ب/ب[2] (آ ١٧//٢٢)

بين هاتين الآيتين موازاة في المعنى والمبنى. كلاهما يبدآن باسم موصول "هذه" (ἅ). كما أنّ كلمة "ظلّ" (آ ١٧)، بما توحيه من واقع آنيّ وأرضيّ واهن، تقابل ما يقال في النواهي من أنّها "زائلة" "وحسب البشر" (آ ٢٣). في عب ١٠:١، نجد التعبير نفسه للدلالة على محدوديّة الأحكام والشرائع الموسويّة: "الشريعة تشتمل على ظلّ الأمور المستقبلة". إذا كانت هذه الشرائع هي "الظلّ"، فالحقيقة هي "جسد المسيح". الترجمة اللفظيّة، "أمّا الجسد فهو للمسيح" (آ ١٧)، لا تخلو من الغموض، لا سيّما في موقعها هنا. ماذا يقصد بولس منها؟ هل تعارضًا بين الأحكام الموسويّة، التي لا يزال بعض الكولوسّيّين متمسّكين بها، وبين حقيقة كنيسة المسيح المتمثّلة هنا بكلمة "جسد"[3]؟ لا شكّ أنّ بولس يشدّد هنا على فكرة الانتماء. فنحن أمام مضاف إليه امتلاكيّ (génitif de possession): الكنيسة

٢- راجع روم ١٤:٣، ٤، ١٠، ١٣، ٢٢، ٢٣.

٣- في هذا المجال راجع كو ١:١٨؛ ٢:١٩.

(الجسد) هي للمسيح (τω σωματω του Χριστου) هي مُلكه. هذا يعني أنّ الجماعة (الكنيسة) في كولوسّي لم تعُد لنفسها، ولا لموسى وشرائعه، ولا لأيّة قوّة أرضيّة أو سماويّة، بل "لرئيسها"، وهو المسيح. لذا ما من شريعة أو فلسفة تأسر الجماعة وتسيّرها إلاّ شريعة المسيح الربّ.

ج/ج٣ (آ ١٨-١٩//٢٣)

بين هذه الآيات أيضًا موازاة مُلفتة. هناك مفردات تتكرّر بينها ("تواضع"، "عبادة"، "جسديّ") فتوحّد المعنى العامّ: عبادة مزيّفة، لها جِلد الحملان لكنّ باطنها ذئاب خاطفة. مسحةُ سخرية تظلّل هذه المفردات. فهي، بحدّ ذاتها، إيجابيّة ولها معنى حسن (عبادة، حكمة، تواضع، قهر الجسد)، لكنّ بولس استعملها ليفضح رياء خصومه. لماذا هذه الإزدواجيّة في سلوك بعض الكولوسّيّين؟ منذ القديم كان هناك ميل عند الإنسان للربط بين المعرفة أو القداسة من جهة، وبين الزهد والتواضع والتقشّف من جهة ثانية: كلّما قهرتَ نفسكَ تحرّرتَ من رُبط الجسد وأحرزتَ درجة عالية من المعرفة والسموّ. هكذا كانت تعتقد بعض التيّارات الفلسفيّة اليونانيّة كالرواقيّين والكلْبيّين[٤] (Cyniques). والمسيحيّة أيضًا ورثت الكثير من هذه الأفكار، حتّى إنّ بعض المتحمّسين غالوا في تطبيقها. في ١تي ٣:٤، مثلاً، نجد بولس يحذّر تلميذه من بعض المرتدّين عن الإيمان الذين كانوا يرفضون الزواج ويمتنعون عن تناول بعض الأطعمة بهدف أن يبلغوا درجة أسمى من الكمال.

هل نحن أمام بذور بدعة العرفان التي استفحلت في القرن الثاني؟ بدون شك. كانت كولوسّي، جارة أفسس المدينة العظيمة، كغيرها من المدن الهلّينيّة، مسرحًا خصبًا لمثل تلك الأفكار الغنوصيّة. لهذا نرى أنّ كو تحوي أكثر من باقي الرسائل البولسيّة تعابير مثل "الإدراك الروحيّ" (٩:١) أو "الإدراك التامّ" (٢:٢) أو "المعرفة والحكمة" (٣:٢). لا يعادي بولس، بشكل مطلق، كلّ محاولة لكسب المعرفة، لكنّه يسرع ليؤكّد بأنّ مصدرها هو يسوع المسيح وحده، الذي "فيه استكنّت جميع كنوز الحكمة والمعرفة" (٣:٢). المعرفة البولسيّة هي محض كريستولوجيّة، محورها ونبعها المسيح. وإن لم تكن كذلك تصبح مزيّفة، لأنّها تنتج من ذات الإنسان، فتوهمه بأنّ أعمَاله التقويّة ومحافظته على الشرائع كانت هي مصدرَ معرفته وكماله ونبعَ قداسته، فيقع بالتالي في الضلال والرياء. المشكلة بين بولس والكولوسّيّين هي إذًا مشكلة تحديد المصدر: هل هو المسيح أم الإنسان نفسه؟ لذا نراه يؤكّد أنّ "في المسيح نكون كاملين" (١٠:٢)، وأنّ من معرفة مشيئته نمتلئ من كلّ حكمة ومعرفة روحيّة (٩:١). نعم، هذا هو "النموّ الذي يأتي من الله" (١٩:٢) ، لا ذاك الذي ينادي به الإخوة الكذبة. خطيئة هؤلاء الكبرى، بحسب لغّة الآية ١٩، هي أنّهم "لم يتمسّكوا بالرأس" الذي به تلتحم أوصال الجسد كلّه، ومنه يكتسب الجسد حياته ونموّه وتناسقه. هؤلاء تركوا المسيح ليتعبّدوا للملائكة، الذين كانوا يعتبرون في التقليد اليهوديّ الوسطاء الإلهيّين الذين من خلالهم أنزل الله شريعته على موسى في سيناء[٥]. بعبادتهم "الخاصّة" (آ ٢٣) هذه يكون بعض الكولوسّيّين قد أرجعوا معتقدات قديمة قضى عليها المسيح بموته وقيامته. هذا ما سيذكّر به بولس أهل كولوسّي بعد قليل.

د (آ ٢٠أ)

هنا مركز النصّ. موت المسيح يشكّل نقطة التحوّل في حياة المسيحيّ. إنّ التعبير "متّم مع المسيح" (آ ٢٠) لا نجده

٤- كان الكلبيّون، وعلى رأسهم ديوجانس الملقّب بالكلب، يمجّدون الفقر والتجرّد كطريقة فضلى للتحرّر. كانوا يعيشون من التسوّل وهم يطوفون في الشوارع والساحات.

٥- نجد آثار هذا التقليد في أع ٧:٣٨، ٥٣؛ غل ٣:١٩؛ عب ٢:٢.

إلاّ مرّتين في رسائل بولس، هنا وفي روم ٨:٦. لا شكّ أنّه يدلّ في كلتا الحالتين على نعمة المعموديّة المسيحيّة التي يعتبرها بولس، لاسيّما في رسالتَي روم وكو، اشتراكًا في دفن المسيح وفي قيامته (كو ٢:١٢؛ رو ٦:٢٥-٢٩) . في موت المسيح غلبة. فيه تظهر بامتياز قدرة الله (كو ٢:١٢). وكما عملت هذه القدرة في المسيح وأقامته من الموت، كذلك تعمل في المؤمنين فتحييهم وتصفح عن زلاّتهم (٢:١٣)، وتجدّدهم، فيخلعوا الإنسان العتيق ويلبسوا الجديد (٣:٩-١٠). أن يموت المسيحيّ "مع" (συν) المسيح، فهذه طريقة أخرى للتعبير عن أنّ المسيح مات "لأجل" (υπερ) البشر (١كو ١٥:٣). إنّه موت فدائيّ وخلاصيّ، بعيد كلّ البعد عن العبثيّة والعدم.

من موت المسيح وقيامته ينبع خلاص الإنسان، وليس من عناصر وقوى كونيّة (أرض، مياه، هواء، نار) كان يُعتقد قديمًا أنّ الكون يتأسّس عليها. لقد سبق لأهل كولوسّي أن "تقبّلوا" الإيمان بموت المسيح وقيامته، "وتأصّلوا فيه وتأسّسوا عليه" (٢:٦-٧)، و"ماتوا" بالتالي عن اعتقادهم بعناصر هذا الكون رافضين الاعتراف بها كقوى مخلِّصة، فلما إذًا الرجوع إلى الوراء؟ لا يتأخّر بولس في استعمال استراتيجيّة تذكير أهل كولوسّي بإيمانهم هذا، كما فعل يومًا مع الكورنثيّين (١كو ١٥:١-٣).

لا أحد يستطيع أن يقيّد حرّيّة المسيحيّ. هذا هو مبدأ بولس العامّ. ومن أجل ترسيخه في عقل المسيحيّين وفي عقيدتهم "جاهد أيّما جهاد" (٢:١). لا يمكن لأيّ شريعة أو نظام أو قوّة كونيّة أن تكبّل المسيحيّ، لأنّ الملكوت الذي يصبو إليه "ليس ملكوت أكل وشرب، بل برّ وسلام وفرح في الروح القدس" (روم ١٤:١٧).